المقدمة

تميز تاريخ المشرق الإسلامي في بداية تاريخه الحديث بسلسلة من التطورات والأحداث التي أسهمت في رسم واقعه المعاصر، حيث شكلت أراضيه مجالاً خصباً لتلك الأحداث، ويشغل المشرق الإسلامي موقعاً جغرافياً في ذلك الجزء المتوسط من العالم القديم، حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب، حاملة ثمرات الجهد الإنساني في الإنتاج الفكري والمادي.

لعلنا لا نعدو جانب الصواب إذا قلنا أن تاريخ العلاقات الصفوية – العثمانية لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض، ولم ينل حقه من الدراسات المتخصصة، ولعل مرد ذلك يرجع إلى صعوبة البحث بسبب قلة المصادر وتعدد لغات مصادره الأولية، وإن وجدت يلاحظ التضارب والتباين الواضح في معلوماتها، وقد كان هناك سباق سياسي بين القوتين الصفوية والعثمانية للاستحواذ على منطقة الشرق الإسلامي، حيث مضتا تسارعان في تحقيق طموحاتهما السياسية في توسيع دولتهما كلاً على حساب الأخر.

والمتتبع لسنوات الصراع نهاية القرن السادس عشر وعشرينيات القرن السابع عشر يلاحظ وجود شخصية أسهمت بشكل فعال في مجريات الأحداث، هو الشاه عبس الأول (الكبير) الذي وصلت الدولة الصفوية في عهده ما لم تصل إليه في عهود سابقيه أو لاحقيه من القوة السياسية والتفوق العسكري، حيث فتح عهد الشاه عباس– ما اشتمل عليه من أحداث كبار– صفحة جديدة من تاريخ إيران ، فقد جعل نفسه شخصية بارزة ورجل حرب وسياسة بإقراره الأمن والاستقرار في داخل إيران بعدما أصابها من تفرق وتشتت واستبداد رجال القزلباش بأمور الحكم. غير انه ألحق ضرراً كبيراً بمنطقة الشرق الإسلامي بتصعيده حدة الصراع بين الصفويين والعثمانيين وتجسيد الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة؛ إن الشاه عباس كان من أولئك الرجال الذين يملكون مواهب نادرة – سلبية أو ايجابية – والمؤمنين إن القدر هيأهم للقيام بمهمة ما، فكان عليه إن يقاوم ويحارب إلى ما استطاع إلى ذلك سبيلا، يتضح من ذلك مدى تأثير الشاه عباس في كيان الدولة الصفوية التي أعاد لها هيبتها كما كانت أيام سلفه وجده الشاه إسماعيل الأول، كما انه زجَ دولته في حرب مع العثمانيين، لم تنتهي حتى بانتهاء دولته، فلا يدعو ذلك مجالاً للشك في انه دوره كان مؤثراً في الصراع الصفوي العثماني.

تأسيساً على ذلك تم اختيار موضوع (الصراع الصفوي العثماني في عهد الشاه عباس ١٥٨٧ – ١٦٢٩م)، وتم اختيار الموضوع لسببين :

أولاً : أن الباحث قام في بحثه الأول (رسالة الماجستير) بدراسة الصراع الصفوي العثماني وتأثيراته على المشرق العربي (١٥١٤ - ١٥٥٥م) وقد ارتئ مواصلة البحث في هذا الموضوع من رؤية أخرى توضيحاً لجوانب كثيرة ومهمة في تاريخ العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية.

ثانياً : ان جامعات بلادي تفتقر ولو لدراسة واحدة عن العلاقات الإيرانية العثمانية، وبالتالي خلو المتخصصين في هذا المجال، وهذا ما شجع الباحث لمزيد الخوض في هذا الموضوع، سيّما بعد ان أتيحت له فرصة الدراسة بجمهورية مصر العربية والإفادة من مكتباتها العريقـة.

أما فيما يتعلق بسبب اختيار الفترة الزمنية (١٥٨٧-١٦٢٩م) فهي فترة حكم الشاه عباس للدولة الصفوية والتي حفلت بكثير من الأحداث سيّما فيما يتعلق بالصراع الصفوي العثماني، ولئن اختصت فترة الصراع الصفوي العثماني بين سنتي (١٥٨٧–١٦٢٩م) فان النظرة الشمولية للموضوع قد ألزمت الباحث بدراسة العلاقات الصفوية العثمانية قبيل ذلك، سبقتها نبذة مختصرة عن أوضاع الدولتين في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، وذلك للإلمام بالمعطيات التاريخية للفترة قيد الدراسة، أما بالنسبة للإطار الجغرافي للدراسة فهو مدّ وجزر ومن فترة لأخرى حسب مناطق النزاع بين الطرفين والذي شمل المناطق الشمالية والشمالية الغربية من الأراضي الصفوية (الإيرانية) كتبريز، بالإضافة إلى شيروان (شمال أذربيجان) وكورجستان (جورجيا) وروان (أرمنستان) فضلاً عن معظم أراضي العراق سيّما ولاية بغداد، ويمكن توضيح الإطار الجغرافي للدراسة من خلال الخرائط المرفقة للبحث.

والواقع أن التصدي لمثل هذا الموضوع ليس بالأمر السهل، وذلك لما تكتنفه من صعوبات، لعل من أبرزها قلة المصادر العربية الأولية، وتعدد أماكن توفر الوثائق والمصادر الأولية الأخرى المدونة باللغات الأجنبية، مما استدعى الباحث طلب العون من المختصين في اللغتين الفارسية والتركية بشقيها القديمة (العثمانية) والحديثة (التركية) لمساعدته في ترجمة العديد من الوثائق والكتب والبحوث، ومما ذلل من تلك الصعوبات الفرصة التي أتيحت للباحث للسفر إلى دولة تركيا والاقتناء من أرشيفها الضخم العديد من الوثائق المعاصرة لموضوع البحث حيث تحصل على العديد من الوثائق غير المنشورة، من أرشيف رئاسة الوزراء Başbakanlık Osmanlı Arşivi، وأرشيف طوبي كابي Topkapı Sarayı Müzesi Arşivi، وبما أن هذه الوثائق تضمن العديد من نصوص

المعاهدات والمراسلات بين الدولتين العثمانية والصفوية فهي بالتالي تتضمن إلى حد كبير وجهتي النظر العثمانية والصفوية، بالإضافة إلى ذلك تحصل البحث على العديد من المصادر والمراجع من السفارة الإيرانية بالعاصمة الليبية طرابلس، علاوة على ما تحصل عليه من مكتبات الجامعات المصرية، إضافة إلى دار الكتب والوثائق القومية بما احتوته من مخطوطات غير محققة أثرت موضوع الدراسة.

لقد حاول هذا البحث دراسة العلاقات السياسية والدبلوماسية بموضوعية بعيداً عن التفسير المذهبي للصراع الصفوي العثماني كما تناولته العديد من الدراسات السابقة، علماً أن جل المصادر سواء منها الصفوية أو العثمانية غير حيادية في تسجيل المعلومات، مما أستدعى الحذر في نسل المعلومات منها، كما عمد الباحث على تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي في علاقة الدولتين وأثره على سير الأحداث.

وتنقسم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة إضافة إلى الملاحق، بيانها كالتالي :.

التمهيد ويضم ثلاث نقاط رئيسة، الأولى تتناول الأوضاع السياسية للدولة الصفوية قبل عهد الشاه عباس الأول، أما الثانية تتحدث عن الأوضاع العثمانية في أعقاب عهد السلطان سليمان القانوني بما عُرف ببداية عصر الاضمحلال، بينما تتناول الثالثة العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الدولتين بدءً من قيام الدولة الصفوية حتى معاهدة أماسيا سنة ١٥٥٥م.

الفصل الأول والموسوم بـ" **حروب الإثنى عشرة سنة** " قُسم إلى أربعة عناصر، يناقش أولها أسباب تلك الحروب بالنسبة للجانبين الصفوي والعثماني، أما ثانيها يتناول أحداث حروب الاثنى عشر سنة بين سنتي (١٥٧٨-١٥٩٠م) والمشتملة على حملتين عثمانيتين على الدولة الصفوية ومناطق نفوذها في كورجستان (جورجيا) وشيروان (أذربيجان) إضافة إلى المحاولات الصفوية لاسترجاع تلك المناطق، بينما يتطرق ثالثها إلى استنتاج ما نجم عن حروب الاثنى عشر سنة، إضافة إلى معاهدة استانبول الأولى سنة ١٥٩٠م والتي أنهت الحرب بين الطرفين، في حين يهتم العنصر الرابع بالعلاقات الدبلوماسية بين الدولتين والتي أعقبت معاهدة استانبول الأولى.

أما الفصل الثاني المعنون بـ" **عباس الأول والنهضة الصفوية في العقد الأول من القرن ١٧م** " والذي يدرس في شقه الأول الإصلاحات الاقتصادية التي قام بها الشاه عباس الأول في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية، والتي كان لها دور بارز في النهضة

التي شهدت الدولة الصفوية مطلع القرن السابع عشر الميلادي، كما يسلط الضوء على الإصلاحات العسكرية التي أجراها الشاه عباس والمتمثلة في تحديث الجيش الصفوي وتنظيمه ومده بالأسلحة الحديثة، بينما يتناول الشق الثاني ما نتج عن إصلاحات الشاه والمتمثلة في نقضه الصلح مع العثمانيين وشنه حرب هجومية بدءً من سنة ١٦٠٣م والتي أفضت إلى تغيّر خارطة الصراع بين الدولتين، ثم يتواصل الحديث حول الرد العثماني على حرب عباس الأخيرة، وتنتهي أحداث الفصل بتوصل الطرفان إلى عقد الصلح بموجب معاهدة استانبول الثانية سنة ١٦١٢م كما يسلط الضوء على الالتباس الذي وقعت فيه العديد من الدراسات السابقة بشأن بنود المعاهدة.

وبالنسبة للفصل الثالث " **حرب سجال ١٦١٥-١٦١٨م** " يدرس ظروف نقض معاهدة استانبول الثانية عندما فشل الطرفان في تسوية مشاكل الحدود بينهما بما عرف بالمسألة الكورجية، ثم يتطرق إلى أحداث الحرب التي استمرت قرابة أربعة سنوات متقطعة، دخل خلالها جيشان عثمانيان الأراضي الصفوية في محاولة لاستعادة ما فقدته الدولة العثمانية في الحرب السابقة، حيث منيت الأخيرة بخسارة فادحة في معركة الجسر المنهار، ومن ثم يتناول هذا الفصل معاهدة سراو بين الدولتين عندما وضعت الحرب أوزارها سنة ١٦١٨م، ويناقش الخلط الذي وقها بينها وبين المعاهدة السابقة في العديد من المصادر والمراجع التاريخية، وأخيراً يتطرق هذا الفصل للعلاقات الدبلوماسية بين الدولتين والتي أسهمت في تحسن العلاقات الثنائية بينهما.

أما الفصل الرابع والمعنون بـ" **الدور الاقتصادي في الصراع الصفوي العثماني** " والمشتمل على أربعة عناصر رئيسة، يناقش العنصر الأول الطرق التي تسلكها التجارة الصفوية عبر الأراضي العثمانية إلى أوروبا، وكيفية تعامل الدولة العثمانية من أجل شلّ أو احتكار هذه الطرق حسب علاقتها بالصفويين، أما حجم التجارة الصفوية مع أوروبا فهذا ما يختص به العنصر الثاني، في حين يكرس العنصر الثالث محاولات التعاون الحثيثة مع بعض الدول الأوروبية التي قام بها الشاه عباس من أجل تحويل طرق تجارة بلاده بعيداً عن النفوذ العثماني، بينما يهتم العنصر الأخير بالتقارب الصفوي الروسي زمن الشاه عباس وما كان له من أثر على الصراع الصفوي العثماني.

وأخر فصول هذه الدراسة بعنوان " **بغداد في الصراع الصفوي العثماني** " والذي ينقسم بدوره إلى أربعة محاور، يؤرخ اول هذه المحاور لفترة الصراع الصفوي العثماني على ولاية بغداد قبل عهد الشاه عباس الأول وكيف تناوب الطرفان على احتلالها طمعاً في

أهميتها التاريخية وموقعها الجغرافي، أما المحور الثاني يدرس بما عرف بتمرد بكر الصوباشي في بغداد، واحتكاره السلطة من الوالي العثماني، ومن ثمة استنجاده بالصفويين ليفتح صفحة من الصراع الصفوي العثماني حول بغداد، ويتناول المحور الثالث الحملة الصفوية التي قادها الشاه عباس سنة ١٦٢٢م، والتي انتهت باحتلال بغداد والقضاء على حركة الصوباشي، أما أخر هذه المحاور فيتعرض بالدراسة للمحاولة العثمانية لاسترجاع بغداد من أيدي الصفويين وما نتج عنها من حروب ومآسي بين الطرفين، وقبل ذلك ما عاناه أهالي بغداد من تلك الحروب.